ذكريات عام ضائع

[أبريل - نيسان - ١٩٥٦]

خيالٌ تمرُّ عليهِ الصورْ ... يعيدُ مِنَ الدهرِ ما قدْ عبرْ
ويضربُ في لججِ الذكريات ... فترجعُ ماثلةً للنَّظَر
تصوِّرُها عينُه حيَّةً ... كَأَنَّ عهودي بها لمْ تمرْ
ويحملُني اليومَ عبرَ السنين ... لماضٍ بأحداثِهِ قد ذَخرْ
أطالعُ في سِفْرِ أيامِهِ ... حياتي وأنقلُ فيها البصرْ
حياةً بأيّامها ما يسوءُ ... على أنَّ في بعضِها ما يُسرْ

* . * . * . *

سُقيتُ الهزيمةَ منْ كفِّها ... وذقتُ بها نشوةَ المُنتَصِرْ
ومرَّ بيَ اليأسُ مثلَ الظَّلام ... وأَدْنتْ ليَ الأَمَل المُزدَهر
بلوتُ بها خُلقَ الأصدقاء ... فكمْ كنتُ مستخلصاً للعِبَرْ
وما خنتُ عهداً لمنْ قدْ وفى ... ولا صُنتُ وداً لمن قد غَدَرْ
وقد يُبعِدُ الدهرُ عني الصديقَ ... وتنأى بهِ الدارُ والمستَقَر
فأَذكُرُ أيامَنا في الصِّبا ... وأذكرُ أعوامنا في الصِّغرْ
وأحلامَنا في هدوءِ الحياةِ ... وآمالَنا في الشبابِ النَّضِرْ
مُنىً لو نظرتُ إلى حاضري ... لألْفيتُها زهرةً تَنتَثِرْ

* . * . * . *

عـرَفتْ الليـالي وإقبَـالهـا ... وجُـرِّعتُ إدبـارَهـا كـالصَّبـرْ
وعشتُ بهـا حَـطَبـاً للهمـوم ... وقـضيتُهـا في شهيِّ السَّمـرْ
خبرتُ الأسى كيفَ يُدمي القلوبَ ... ويعصِـرُهـا قبـلَ أنْ يَنحسـرْ
تجـاريبُ مـا أدركتْهـا الشيـوخُ ... مـررتُ بهـا في ربيـعِ العُمُـرْ
ليالي الكفاحِ، أما قد شهدتِ ... فتىً لا يـدبُّ إليـهِ الخَـوَرْ
يـهـمُّ فـلا يَـنثـني لـلوعيـد ... ولمْ تُغنِ يـوماً لـديـهِ النُّـذرْ
ويؤمِنْ بـالـرأيِ حـراً يُـذاعُ ... وإنْ كـانَ فيـهِ ولـوجُ الخـطرْ
أمـا تـذكـريـنَ لـهُ وقـفـةً ... تحدي بها الجورَ في المؤتمرْ
فلمْ تـكُ منـهُ سـوى صيحـةٍ ... وكـانَ صـداهـا انـدلاعُ الشَّـررْ

* . * . * . *

مَنِ الفتيـةُ الصيـدُ شقَّ الفضـاء ... هتـافٌ لهمْ قـد عـلا وانتشـرْ
غضـابٌ وقـدْ رضيَتْ مَصـرعـا ... أتـى المـستـدُّ بـهِ أو أَمَـرْ
وأيَقـظَهُمْ مـا أنـامَ الـجميـعَ ... من الـظلمِ في ليلهِ المعتَكـر
هيَ الثـورةُ اندلعتْ في العـرينِ ... وبـركـانُهـا احتـدَّ ثمَّ انفَجَـرْ
وإنَّ الـعقـابَ أثـارَ الـغضـابَ ... كـزيتٍ على لـهبٍ ينهمـر[1]

* . * . * . *

ويـا ليلةً في الشتـاءِ الكئيبِ ... عـوى ريحُهـا فـاستقرَّ الشجـرْ
شَـدتْ أمُّ كلثـومَ في حَـفلهـا ... وهـزَّ الـخليَّ رنـينُ الـوَتَـرْ
ونـمتُ عـلى نـغـمٍ حـالـمٍ ... فـأيقَـظني صـوتُ شيخِ الخَفَـرْ
أتى يـطرقُ البـابَ في لهـفـةٍ ... فـأحسستُ بـالخـطرِ المنتـظرْ
ومـا كنتُ لـولا سجـونٌ طغى ... بهـا البطشُ في قسـوةٍ بل فُجُـرْ
بِـمُـغـتِـنـمٍ فـرصـةً لـلفـرارِ ... فـأغفي الجفـونَ إذا قيـلَ فَـرْ
ولـكنَّـهـا النـارُ ذاتُ الـوَقَـودِ ... مـن الجـورِ لـواحـةٌ لـلبشـرْ

---

(١) يشيـر الشاعر إلى ثورته على الظلم والقيود في المعهد الديني، مما أدى إلى إبعاده.

نجوتُ بنفسيَ من شرِّها ... فلستُ أرى بعد أَنْ أنتَحَرْ
خرجتُ وجلبابُ نومي يذيقُ ... عظامي من البردِ لذعَ الإبرْ
وما هدأ القلبُ حتى نعمتُ ... بدفءِ الفراشِ وأَمْنِ المَقرْ
فلمْ أدرِ، والسهدُ داءُ المَطَاردِ ... هلْ طالَ بي الليلُ أمْ قَدْ قَصُر
ودلَّ على الفجرِ لألاؤهُ ... فأصبحتُ في قلقٍ مُسْتمرْ
أسائِلُ نفسي عن الصحبِ كيفَ ... قَضوا ليلَهم في رَطيبِ الجُدُرْ
إلى أينَ سِيقوا، وهلْ يَرجَعونْ ... أَمِ الظُّلمُ يُلقي بهمْ في سَقَرْ
مَصيرٌ يُحيطُ بمجهولهِ ... عذابُ زبانيةٍ مُبتكَرْ

* . * . * . * . *

وفتيانُ صدقٍ بإيمانِهم ... حقائِبُ قدْ أُولعتْ بالسَّفرْ
تَنادوا ببذلِ أشقِّ الجهودْ ... لرفعِ القرارِ الذي قدْ صدرْ[1]
وما هو هزلٌ.. ولكنَّهُ ... فناءٌ... ومستقبلٌ يَحتَضَرْ
تراهمْ وعاصمةُ النيلِ قدْ ... تراختْ ضحىً بعدَ طولِ السَّهر
يسيرونَ في يدهِمْ للولاة ... مذكرةٌ لمْ تدعْ أو تَذرْ[2]
فَسَلْ رمضانَ الكسولَ الخمول ... عن السعيِ في قيظهِ المُستعِر

* . * . * . * . *

يُدمِّرُنا عطشٌ قاتلٌ ... وإنَّا لَهُ لكرامٌ صُبرُ
إدارتُنا مروةٌ والصَّفا ... وزيرٌ إلى عونهِ نفتقرْ
نهرولُ بينَهما في الهجير ... بما زادَ عن سَبعِهِ المُعتمر[3]
ونسألُ في الأمرِ مَنْ يستجيب ... ومن خدُّهُ كَلِفٌ بالصَّعَرْ

---

(١) يشير إلى مطالبة زملائه وأصدقائه باعادته إلى المعهد.

(٢) إشارة إلى المذكرة المقدمة من الطلبة إلى المسؤ ولين بشأن عودة الشاعد إلى المعهد. ,

(٣) إشارة إلى السعي بين الصفا والمروة أثناء العمرة والحج وما ترمز إليه من طاعة الله والبحث عن ماء الحياة، وهنا يصور كثرة ترددهم على المسؤ ولين والوزير بشأن فصل الشاعر من المعهد.

نـروحُ ونـغـدو وأجـسـادُنـا تـنـوءُ بـعـبئيـنِ صـومٌ وحَـرّ
ونـشـهـدُ تـقـويضَ آمـالِـنـا فـلا يُضعِفُ الجَهدَ منا الضجر

* . * . * . *

زقـاقُ السبـاعيِّ كمْ فيـكَ مِنْ لـيـالٍ لـنـا طـيـبـاتُ الـثَّـمـرْ
حَملنا لكِ الـذكريـاتِ العـذاب يَـمـرُّ الـزمـانُ ولا تَـنـدَثـرْ
أتـذكـرُ عـزةَ شهـرِ الصِّيـام ونـحـنُ بِـهِ غـربـاءُ الأسـرْ
تـضـاعفُ أشـجـانَنـا فـرحـةٌ لمنْ حـولنا بـالهـلالِ الأغَـرْ
ولـيس الـشـجيُّ كَـمَـنْ قـلبُـهُ خليٌ ولا الصفـوُ مثـلُ الكَـدَرْ
فَمِنا الـذي قـد دعـاهُ الخـلاق فصامَ، ومِنا الـذي قَـدْ فـطرْ
أتـذكـرُ إفـطارنـا إذ أُعـدَّ على سـرعـةٍ من شهيِّ الخُضَـرْ
تَـضُـمُ بـأفـواهِـنـا بـارداً إلى سـاخنٍ لا نخـافُ الضـرَّر
ومـا زادَ نُبقيـهِ حتى السُّحـور فنـأكـلُ مِنْ قـوتِنا المُـدَّخـرْ
وإن ضاقَ بالفـولِ جوفُ الـوعاء فـآنيـةُ الـشـايِ لا تَـعـتـذرْ
وخبزُ الـرِّفـاقِ لـذيـذ المَـذاق أتـيـنـا عـليـهِ بيـومٍ عَـسِـرْ
ومـطبَـخُـهُـم كـامِـلٌ عـامِـرٌ ومسكَنُهُم حـافـلٌ بـالسُّـرُرْ[1]
وربَّ مُـذكـرةٍ قـد سَـهـرتُ أُدَبِّـجُ أَشـطُرهـا في السَّـحْـرْ
وتـأبى صحـافَتُنـا أَنْ تـمـدَّ يَـديها وتؤثِـرُ فينا الحـذَرْ[2]
ونـذهبُ نحمِلُها في الصَّبـاحِ لأشيـاخِنـا والـجهـتِ الأُخـذر
وضـجُّ الثَـرى تحتَ أقـدامِنـا من السَّيرِ حتى احتـوانـا النَّهـرْ
ورُحنا إلى النيلِ نَبغي العـزاءَ على زورقٍ حـالمٍ قـد عَـبـرْ
نَـبُثُ أبـا مـصـرَ مـا نـالَـنـا فيُبـدي حنـانَ الـرَّحيم الأبـرّ

---

(١) السـرر: جمـع سرير.

(٢) يشيـر إلى سكوت الصحافة وعدم تحدثها عن مشكلة الطلبة المفصولين وكان ذلك خوفاً من السلطـة.

ونُلقي إليهِ بكلِّ الأسى ... فيغرقُ في مَائِهِ المُنحدرْ
ويبعثُ آمالَنا في الصدور ... كأن لمْ تُبكرْ إليها الغِيرِ
وأنشدتُهُ الشِّعرَ في الظالمين ... مريراً فما باحَ يوماً بسرْ

* . * . * . *

كذاكَ وقد ضيَّعوا عامنا ... يضيعُ بأوطانِهِ كلُّ حر
وعدْنا فوا عجباً للزمان ... ببسمتِهِ جرْمُهُ يُغتفر
وقد تُشرِقُ الشمسُ بعدَ الغمام ... ويعتدلُ الجوُّ بعدَ المطر[1]

* . * . * . * . *

---

(١) هذه القصيدة تدل دلالة واضحة أن الشاعر تعرض للفصل من معهد الزقازيق في عهد عبد الناصر وظل كذلك حتى عام ١٩٥٦ ، بينما أدعى محمد كامل حته في الديوان الذي نشره باسم الشاعر أن فصل الشاعر من المعهد كان في زمن فاروق، وأن الثورة أعادته .
وكذلك تؤكد مذكراته ما جاء في هذه القصيدة، وكانت عودته بعد اتصال الشاعر بالوزير كمال الدين حسين آنذاك وهذه القصيدة التي ضمها إلى ديوانه [جراح مصر] كانت تصويراً لجانب من جوانب الظلم، مع العلم أن هذا الديوان ـ ذا القصائد العشر ـ كان الشاعر قد أخفاه عن الأنظار ولم يعرف به إلا المقربون .